شهداء يسوع

«لأَنَّ لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ»

(في ١: ٢١)

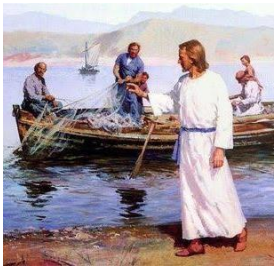

تمهيد:

إنَّ الشهادة والاستشهاد على اسم المسيح والإيمان به، هما فخر مسيحيَّتنا وعنوان كنيستنا. لأنَّ الثبات في مواجهة العالم والخطيَّة وإبليس حفاظًا على إيماننا وطهارتنا ومحبَّتنا للربِّ يسوع، هو صكُّ غَلَبتنا ونُصرتنا وعبورنا إلى ملكوت ربِّنا، كما يقول يوحنا الرسول: «وَهذِهِ هِيَ الْغَلَبَةُ الَّتِي تَغْلِبُ الْعَالَمَ: إِيمَانُنَا» (١يو ٥: ٤). والصمود والكرازة والاعتراف بهذا الإيمان أمام العالم حتى الدم هو شهادة على شركتنا الفعلية في آلام المسيح وموته، وبالتالي استحقاقنا للشركة في قوة قيامته ومجده.

فالشهادة والاستشهاد إذن، هما وجهان مشرقان للكرازة الحيَّة باسم المسيح أمام العالم؛ فالشهادة **بالفم والكلمة** وقوة الإيمان هي **كرازة بالحياة**، يتشارك فيها الشاهد مع المسيح؛ في حياته وصراعه مع قوى الشرِّ التي في العالم، محتملًا الأتعاب والمحاربات من الناس والجسد - داخليًّا وخارجيًّا - بأتعابٍ وأسفارٍ ومشقَّاتٍ وأصوام، وربما اضطهاداتٍ وأحزان، من أجل الشهادة لاسم يسوع، والكرازة به أمام العالم، ومن أجل الاعتراف الحسن باسمه المبارك الذي نجَّاه من الموت الأبدي، ونقَلَه إلى جدة الحياة، بقيامته المقدَّسة. أمَّا الشهادة **بسفك الدم** (الاستشهاد والقتل)؛ فهي **كرازة بالموت**، وذلك ببذل الحياة والنفس بالكامل، في الصراع مع الشيطان نفسه ومع سلطانه، والاشتراك الفعلي مع المسيح في مجد الصليب، حتى نحظى بمجد قيامته: «مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لَا أَنَا، بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ» (غل ٢: ٢٠).

ويقول القديس كليمندس الإسكندري: [إنَّ الاعتراف (الشهادة) هي بإمكان الجميع، ولكن تحقيق ذلك بالآلام هو نعمة لم تُعطَ إلاَّ للقليلين] (Strom. iv.9.) . ومن هذا يتضح لنا أنَّ مجد

الاستشهاد (الشهادة بالدم) هو قمة عمل الشهادة والكرازة لاسم المسيح وفخرها؛ لأنَّه يمثِّل فعل محبة وإيمان جبَّار، وينطوي على تضحية كبيرة، ومحبة عظيمة تفوق سلطان الموت ذاته، وعن هذا يكتب يوحنا الرسول: «وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْخَرُوفِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ، وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ» (رؤ ١٢: ١١). فالاستشهاد من أجل الإيمان إذن، هو صورة مشرقة للصمود العظيم، وشهادة لصلابة الإيمان، تعطي صاحبها استحقاق إكليل المنتصرين.

الشهيد شاهد قوي للصليب (شركة الآلام)، ومجد القيامة:

يلزم أن نقول إنَّ الاستشهاد على اسم المسيح، والجهاد حتى الدم والصليب، لا يحمل في طيَّاته أيَّ منفعة أرضية، أو ربح منظور، لأنَّه ينتهي (ظاهريًّا) بموت الجسد. إذن علامَ يعتمد الشهيد في تقديم حياته، وتعريضها للخطر والموت، بكلِّ فرح واجتهاد؟

إن كان الاستشهاد يتضمَّن ألمًا - جسديًّا وذهنيًّا ونفسيًّا - فهو، من ناحية أخرى، يؤكِّد صلابة الإيمان القويِّ الذي يستند عليه صاحبه (الشهيد). فإيمان الشهيد الراسخ بأنَّ حياته مستترة في المسيح (انظر: كو ٣: ٣)، وأنَّ المسيح هو حياته، وما الموت سوى قنطرة عبور من هذه الحياة الفانية إلى الحياة الأبديَّة مع المسيح، حسب قول الرسول: «لأَنَّ لِيَ الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ» (في ١: ٢١)، وكذلك إيمانه بأنَّ موته هو شركة حقيقية في صليب المسيح، وصفقة رابحة بما لا يُقاس، فيها ينال شركة مجد المسيح، وتكثُر له تعزياته، وإنَّه وإن مات فسيتكلَّم بعد! فهي عربون مُفرِح للشركة في قيامة الربِّ ومجده الأبدي أيضًا. لذلك يهتف مع بولس الرسول: «لأَنَّهُ خَيْرٌ لِي أَنْ أَمُوتَ مِنْ أَنْ يُعَطِّلَ أَحَدٌ فَخْرِي» (١كو ٩: ١٥). وأيضًا: «إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ لِكَيْ نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ» (رو ٨: ١٧)، وكذلك قول الرسول: «كَمَا تَكْثُرُ آلاَمُ الْمَسِيحِ فِينَا كَذلِكَ بِالْمَسِيحِ تَكْثُرُ تَعْزِيَتُنَا» (٢كو ١: ٥). فالشهادة بسفك الدم، هي إحياء حقيقي للصليب في حياة الشهيد، وشركة فعلية مع الربِّ في آلامه بالجسد، فيها تكون محبة المسيح والإيمان به قد تملَّكت قلب الشهيد وفكره وروحه، ويكون المسيح (بذاته) حاضرًا يسنده حتى النفس الأخير، ويداوي جراحاته، ويشفي آلام نفسه وجسده، إلى وقت استشهاده وانطلاقه.

كذلك فإنَّ الربَّ يسوع - في وقت آلام ومعاناة الشهيد - يملأ قلبه فرحًا وسلامًا أبديَّيْن، ويعطيه بهجة وسرورًا غير عاديَّيْن بقُرب لقائه، ونواله إكليل الحياة؛ فتنفتح عيناه

على أمجاد السماء وأنوارها، فيهبُّ لساعته مسرعًا ليد قاتليه يستعجلهم، بصورة مذهلة ومُفرِحة، تُنسِيه كلَّ الآلام أمام بهاء استعلان المجد المُعدُّ له في السموات، فينفعل وتفوح منه رائحة المسيح الزكيَّة، حتى في سلوكه؛ بغفرانه لقاتليه، والصلاة من أجل المسيئين إليه، مثلما رأينا في أحداث استشهاد القديس استفانوس، والشهداء القديسين إغناطيوس وبوليكاربوس، وشهدائنا الجدد في ليبيا، وغيرهم.

ولا ننسى هنا، مدى اشتياق توما الرسول، واندفاعه بالقول لسيِّده، حينما أدرك تصميمه على التوجُّه لأورشليم، حيث خطر الصلب والموت، حيث قال للتلاميذ رفقائه: «لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضًا لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ!» (يو ١١: ١٦)، كما رأينا كم كانت هذه الأمور هي الدافع الأعظم للرسل والشهداء في تقديم حياتهم للموت، بعدما أدركوا أن موت الربِّ قد قادهم لمعاينة قيامته، وأن شركتهم في آلام المسيح وموته، ستؤول لشركتهم في قيامته ومجده. فجالوا مبشِّرين يؤدُّون الشهادة بالقيامة بلا خوف، كقول لوقا البشير: «كَانَ الرُّسُلُ يُؤَدُّونَ الشَّهَادَةَ بِقِيَامَةِ الرَّبِّ يَسُوعَ...» (أع ٤: ٣٣)، فصارت هذه الشهادة بالقيامة هي سرُّ قوَّة شهادتهم، ومن أجلها يقول الرسول بولس: «مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ» (رو ٨: ١٣)، واثقين أنَّهم وإن ماتوا يتكلَّمون بعد، ومن أجل شهادة القيامة الثابتة في قلوبهم والتي عاينوها في حياتهم، هم مستعدُّون للموت ليحيوا مع المسيح.

علامات هامة للاستشهاد المسيحي:

بداية نقول، إنَّ هناك مفاتيح روحية هامة، قادرة وحدها أن تحوِّل قوَّة الموت والألم السَلبيتين، من قوَّة هدَّامة مدمِّرة، إلى قوَّة خلاَّقة إيجابية وبنَّاءة، وأن تحوِّل الموت ذاته، الناتج عن العنف والقتل، إلى فعل شهادة حيَّة وذبيحة مقبولة، فما هي تلك المفاتيح والعلامات التي يتَّسم بهما الاستشهاد في المسيحية؟

أولًا: القبول الإرادي للآلام والموت (تقديم الذات):

الاستشهاد ليس مجرد قبول للآلام وسفك الدم فقط؛ بل هو في الحقيقة **"تقديم للذات كاملة لله"**، بمعنى القبول طوعًا، وبحريَّة كاملة، بتسليم وتكريس الحياة كلِّها وتقديسها لله، ليحوِّلها إلى قوة خلاَّقة، ويقدِّسها هو بذاته، ويجعلها ذبيحة مقبولة أمامه، فهذه تُعدُّ أعظم تقدمة لله؛ أي (الموت كذبيحة)، وهذا يوافقه القول الموضوع

على فم المسيح في الرسالة إلى العبرانيين: «هَأَنَذَا أَجِيءُ ... لأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا اللهُ» (عب ١٠: ٧). فالاستشهاد شجاعة وجرأة إرادة حرَّة: «أَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ» (يو ١٠: ١٥، ١٨)، وأيضًا قول الرسول عن الربِّ يسوع: «أَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ» (في ٢: ٨). فالموافقة الحرَّة، الطَّوعيَّة والإراديَّة لقبول الألم من أجل الله، ومن أجل شهادة الإيمان؛ هذه تحوِّل التقدمة والألم من عمل سلبي، وترفعه لمقام الذبيحة المقبولة. والسرُّ يكمن في تسليم المشيئة الخاصة بالإنسان للتوافق مع مشيئة الآب السمائي، حسب القول: «لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ» (مت ٢٦: ٣٩)، وكذلك قول بولس الرسول: «إِنْ عِشْنَا فَلِلرَّبِّ نَعِيشُ، وَإِنْ مُتْنَا فَلِلرَّبِّ نَمُوتُ» (رو ١٤: ٨).

الشهادة إذن، فعل إرادي وقبول طوعيٌّ، نقدر أن نوحِّد فيه آلامنا مع آلام المسيح، بل ومع آلام العالم. فكُلُّنا حاملون للصليب، ونحن مدعوون للشهادة كلَّ يوم: «مِنْ أَجْلِكَ نُمَاتُ كُلَّ النَّهَارِ» (رو ٨: ٣٦)، وبشهادة ضمائرنا عن تقديمنا لذواتنا والتسليم لمشيئة الله، وتقديس أنفسنا من أجل إخوتنا؛ سوف نتأهَّل للمثول أمام عرش النعمة، مع صفوف الشهداء والقديسين. ونسجِّل هنا كلمات الشهيد إغناطيوس عند تقدُّمه للشهادة، إذ يقول: [إنِّي ذاهب بملء رضاي إلى الموت لأجل الله. راجيًّا ألاَّ تقفوا عائقًا في طريقي] الرسالة إلى رومية ٤.

- مثال الحياة الرهبانية:

الطريق الرهباني يعدُّ مثالًا واضحًا للاختيار الحرّ، الممكن أن يكون بديلًا مساويًا وكاملًا للاستشهاد في أوقات السلام، حيث لا توجد حروب أو اضطهادات خارجية عنيفة. ذلك لأنَّ دعوة الاستشهاد لا تُفرَض، وهكذا أيضاَ الرهبنة تظلُّ اختيارًا حرًّا أمام الإنسان، يستطيع أن يقبل نيره بكلِّ حرية وإرادة طوعية، ليُقدِّم نفسه ذبيحة حيَّة مرضيَّة أمام الله، بالنسك والتجرُّد ونبذ العالم، والتكريس الكامل على مذبح الحبِّ الحقيقي لله.

فالطريق النُسكي هو استشهاد خفي، والدعوة الرهبانية مثال واضح لهذا الطريق. ولكن ليس معنى ذلك أنَّ الطريق النسكي يختصُّ بالرهبان فقط؛ لأنَّ الشهادة بدون سفك دم هي في التخلِّي عن المشيئة الذاتية، إذ هي تستلزم التضحية بالذات- كما سبق القول - وتقديمها ذبيحة لله من أجل الآخرين وفرحهم وخلاصهم، كما قال الرسول بولس: «فَإِنِّي كُنْتُ أَوَدُّ لَوْ

أَكُونُ أَنَا نَفْسِي مَحْرُومًا مِنَ الْمَسِيحِ لأَجْلِ إِخْوَتِي أَنْسِبَائِي حَسَبَ الْجَسَدِ» (رو ٩: ٣).

ثانيًا: شركتنا في آلام إخوتنا شاهد على شركتنا في آلام المسيح:

إنَّ المحبة الأخويَّة هي التي تجعلنا نعتبر أن آلام الآخرين هي نفسها آلامنا نحن؛ ففي هذه الحالة تتحوَّل الآلام والأحزان، بل والموت الذي نجوزه، إلى أمرٍ خلاَّقٍ وليس إلى حَدثٍ هدَّام! ويصير الموت استشهادًا لا عذابًا وقتلًا. وبولس الرسول يقول: «فَإِنْ كَانَ عُضْوٌ وَاحِدٌ يَتَأَلَّمُ، فَجَمِيعُ الأَعْضَاءِ تَتَأَلَّمُ مَعَهُ» (١كو ١٢: ٦). وبهذا يمكننا أن نستوعب إحساس ومعنى صلاة الشهيد الشفاعية لقاتِليه، مثلما صنع الشهيد استفانوس، متمثِّلًا بسيِّده يسوع، حين قال: «يَا رَبُّ، لَا تُقِمْ لَهُمْ هذِهِ الْخَطِيَّةَ» (أع ٧: ٦٠).

وفي الحياة الرهبانية، نرى مثالًا لذلك في قصة الأخ الذي رفض أن يترك أخاه الذي سقط، ولم يُرِدْ العودة للدير، بعد نزوله إلى العالم؛ فرافقه حتى أقنعه بالعودة، واعترف عن خطايا أخيه، كأنَّه هو فاعلها، وقبِل معه قانون التوبة الذي لم يكن يخصُّه، فمن أجل إنكاره لذاته، وإهانته لنفسه عوضًا عن أخيه؛ قُبلت توبة أخيه، وسامحهما الإخوة، فأكمل الشهادة الحقيقية بحمله لأثقال أخيه من أجل الله، وانطبق عليه قول الرسول: «اِحْمِلُوا بَعْضُكُمْ أَثْقَالَ بَعْضٍ، وَهكَذَا تَمِّمُوا نَامُوسَ الْمَسِيحِ» (غل ٦: ٢). فالتخلّي عن المشيئة والذات هي شهادة ضمير أمام الله، تشهد لنا عن مدى أمانة شهادتنا وصدقها. كذلك فإنَّ حياة البتولية والعفة ونذرها بانسكاب أمام الله من أجل سلامة إخوتنا وخلاصهم وسلامتهم؛ بل ومن أجل كلِّ إنسان في العالم، هي بحدِّ ذاتها صورة حيَّة للشهادة المقبولة، لأنَّها تُعدُّ ذبيحة حبٍّ نقيَّة أمام الله.

الاستشهاد يقهر الخوف، والروح القدس يمنح الفرح:

إنَّ فرحة الشهيد وابتسامته يستمدُّها من قوة المسيح القائم من الأموات كغالب، وبفعل الروح القدس، الذي يهبه للشهيد؛ إذ يمنحه القدرة على تجاوز الآلام والعذابات، ويعطي لروحه سلامًا وهدوءًا، بل ويهبه - في مراتٍ كثيرةٍ - معاينة مجد المسيح وأمجاد السماء، برؤى منظورة مبهجة، تمحو كلَّ آلامه وتُعينه حتى وقت وصوله إلى الأمجاد. كذلك فإنَّ غلبة الشهيد للخوف، هي بعينها صورة شاهدة له عن غلبته لهذا العالم وشهواته، وختمًا على كمال جهاده حتى الدم، في سبيل إيمانه وثباته في محبة سيِّده، لأنَّ

قلبه وعيناه قد تثبَّتا نحو مخلصه وإكليله المُعدُّ للمجاهدين في السماء.

ختام:

إنَّ سرَّ تطويب الشهداء يرجع لكونهم قد مجَّدوا الله بموتهم، كما صنع القديس بطرس الرسول: (انظر: يو ٢١: ١٩)، وكذلك بحسب ما قاله الشهيد العظيم إغناطيوس الأنطاكي: [أنا ذاهب إلى روما مقيَّدًا كآخر المؤمنين، ولكني حُسبتُ بهذا مختارًا لكي أعلن **مجد الله**] (أفسس ٢١).

إنَّ رائحة دم الشهداء العطرية تفوق في عظمتها كلَّ عطور الأرض، والذين احترقت أجسادهم ارتفعت منها رائحة البخور العطرة، كذبائح مرضيَّة أمام الله. ويصلِّي القديس بوليكاربوس عند استشهاده قائلًا: [أيها الربُّ الإله القادر على كلِّ شيء ... أباركك لأنك رأيت أن تُنعم عليَّ في هذا اليوم وفي هذه الساعة أن أكون من عداد شهدائك، ومن المشتركين في كأس مسيحك لقيامة الروح والجسد بدون فساد في الحياة الأبدية].

(رسالة كنيسة سميرنا عن استشهاد بوليكاربوس، فقرة ١٤).

****

من كلمات الأب متى المسكين عن الاستشهاد: معنى الاستشهاد:

قد يبدو الاستشهاد بسفك الدم على اسم المسيح عملًا من أعمال الشجاعة أو البطولة أو مجرَّد قوة إيمان، ولكنه في الحقيقة عمل من أعمال الروح القدس المباشرة التي يطبعها في الإنسان على أساس أنه ينقل للإنسان الذي يؤمن بالمسيح صفة من صفات المسيح التي هي "وضع الذات" أو بذلها للموت: «لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا» (يو ١٠: ١٨)، فالمسيح وضع ذاته وأطاع الآب حتى الموت موت الصليب (في ٢: ٨).

وظيفة الروح القدس الأساسية فينا هي أن ينقل لنا كل ما للمسيح، وضمنًا هذا السلطان عينه أي سلطان المسيح على ذاته: «لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا»، فكما وضع المسيح ذاته على الصليب وأطاع الآب حتى الموت، وبذلك أصبح موت المسيح هو بحد ذاته طاعة للآب وبالتالي صورة وشهادة لتمجيد الآب، هكذا تمامًا ينقل لنا الروح القدس هذه الصفة الأساسية التي كانت للمسيح وهي سلطان وضع الذات وبذلها للموت طاعة وشهادة لمجد المسيح والآب.

(مقال استشهاد الرسولين بطرس وبولس، ١٩٧٣)